فتح المكسيك

اتّصل بنا الكلام في الجزء السابق الى ان خمسة من الرؤساء جاءوا كورتس ذات يوم وفتحوا لهُ باباً الامل بعد ان يئس من الاقامة في تلك البلاد . وكان اثنان منهم يعرفان لسان الازتك فكلمتهم مارينا بهِ فاخبراها انهم من اهالي سمبوالا عاصمة بلاد التوتونك . والتوتونك جيل من سكان المكسيك نزلوا تلك البطاح منذ قرون كثيرة . وكان ملك المكسيك قد دوّخ بلادهم منذ عهد قريب وضرب عليهم الجزية واذاقهم انواع الذل وبلغ اميرهم ان الاسبانيين جاءوا البلاد وهم لا يهابون سطوة ملكها فبعث بهؤلاء الرجال اليهم يدعوهم الى عاصمتهِ

فاصغى كورتس الى هذا الكلام مسروراً واتّضح لهُ حينئذٍ ان البلاد ليست على ما توهم من الاتحاد والائتلاف بل فيها احزاب وضغائن كامنة في الصدور وانهُ ليس بمستبعَد ان يستعين بعضهم على البعض الآخر فيقوّض اركان ملكهم ولذلك اكرم هؤلاء الوفود وصرفهم بالهدايا الكثيرة ووعدهم بان يزور اميرهم في عاصمتهِ قريباً

وكان جنودهُ وبعض قوّادهم قد ملّوا الاقامة ووَدّوا الرجوع الى بلادهم . والمخلصون منهم لوالي كوبا تذمّروا من ان كورتس تعدّى الاوامر المعطاة لهُ من الوالي وجرى على مقتضى هواهُ . الاّ ان الباقين قالوا اننا اذا رجعنا الى كوبا خسرنا كل شيء نعم ان كورتس فعل ما فعل غير ملتفت الى اوامر الوالي ولكن ما فعلهُ انما فعلهُ باسم الملك[1] غير طامع بالربح ولا مغضٍ عن كرامة مولاهُ

واخيراً جاءهُ انصار الوالي وكاشفوهُ بما يضمرون وطلبوا منهُ ان يعود بهم وبالجنود الى كوبا. فقابلهم بالبشاشة والوداعة على غير ما انتظروا وقال لهم انيّ افضّل البقاء هنا لاتمام العمل الذي ابتدأنا فيهِ لان ربحنا من معاملة السكان قد ابتدأ الآن ولكن اذا كان الجنود مصرّين على العودة فانا انقاد اليهم وافضل رأيهم على رأيي وآمرُ بعودتهم حالاً . ثم امر ان يكون الجنود

(١) الكلمة الاصلية تدلُّ على الملكين بصيغة الجمع الدالة على المثنى ايضاً وعلى المذكر والمؤنث معاً. فان الملكة ايزابلا ملكة اسبانيا توفيت سنة ١٥٠٤ فانتقل ملك اسبانيا الى ابنتها لكنها كانت مصابة بدخل في عقلها فبودي بها ملكة وبقي زمام الملك في يد ابيها الملك فرديناند الى ان توفي في ٢٣ يناير سنة ١٥١٦ فانتقل الى حفيدهِ تشارلس الخامس امبراطور المانيا ولذلك فاذا قيل الملكون هنا فالاشارة اليهِ والى امهِ واذا قيل الامبراطور فالاشارة اليهِ وكان كورتس يستعمل هذه الكلمة احياناً بمعنى ملك الملوك تعظيماً لهُ لدى اهالي المكسيك الذين كانوا يحسبون ملكهم ملك الملوك . وقد اخترنا كلمة ملك لانها تفي بالمراد وهي اخصر في اللفظ

مستعدين للسفر والعودة الى كوبا . فلم يكد امرهُ ينتشر في المعسكر حتى حمدت ثورة الذين كانوا قائمين عليهِ وعدل بعضهم عن رأيهم . وهذا شأن الناس امنع عنهم ما يطلبون فيزيدوا طلبًا ولجاجةً اجبْ طلبهم حالاً فلا يبقى لهُ شأن عندهم . اما انصارهُ فاتخذوا ذلك مندوحة للتذمُّر والشكوى او للتظاهر بهما وجعلوا يقولون انهُ نكث عهدهُ وخان وطنهُ وتألبوا حول خيمتهِ طالبين ان يلغي امرهُ وقالوا لهُ اننا اتينا الى هنا لكي نمتلك البلاد ونستوطنها فان لم يكن معك امر من والي كوبا لتفعل ذلك فافعلهُ باسم الملك فاننا نحن اكتشفنا هذه البلاد ولم نكتشفها باسم والي كوبا بل باسم الملك وباسمهِ نسكنها ونعمّرها ولذلك نطلب منك ان تسرع حالاً في بناء مدينة لنا ولا تُضع الوقت في المعاملة والمتاجرة واما الرجوع الى كوبا فلا نسلّم بهِ ابدًا واذا ابيتَ ان تجيبنا الى طلبنا شكوناك الى الملك

فتظاهر بالحيرة كانهُ لم يكن منتظرًا هذه المجاهرة وهذا العتوّ لكنهُ لم يبدِ الغيظ بل قال ان الامر كذلك فاسمحوا لي حتى اتبصَّر فيهِ وغدًا اجيبكم . وجمع الجنود في اليوم التالي وخطب فيهم خطبة وجيزة قال فيها انهُ ما من احد اشد منهُ طاعةً للملك وارغب منهُ في اعلاء اسم اسبانيا بين الممالك فانهُ انفق كل ما يملكهُ في هذا السبيل واستدان الاموال الطائلة لكي يقوم بنفقات هذه الحملة وكان يرجو ان يستردَّ بعض ما انفقهُ من معاملة المكسيكيين ولكن ان كان الجنود مصرين على انشاء مستعمرة فهو يضحي مصلحتهُ لاجل مصلحتهم فينشئ مستعمرة باسم الملك ويعين لها واليًا وقاضيًا

ثم امر باقامة المدينة في مكان اكتشفوا فيهِ مرفأً امينًا للسفن وعيَّن لها واليًا رجلاً من خواصهِ ونائبًا لهُ رجلاً من انصار والي كوبا حتى يجمع بين الحزبين وعيَّن باقي الموظفين من خواصهِ فحلفوا يمين الطاعة للملك وسميت المدينة فرا كروس واجتمع الوالي ونائبهُ والقضاة وباقي الموظفين فدخل عليهم حاسرًا وقال لهم لقد انقضت الآن المهمَّة التي اتيت بها لان سلطة والي كوبا زالت امام سلطة والي المدينة الجديدة فصرتُ كاحد رعاياكم ولكم ان تامروني بما تشاءون . قال ذلك وحنى لهم رأسهُ علامة الخضوع والاكرام وخرج من المجلس . فتذاكروا في الامر هنيهة ثم استدعوهُ اليهم وقالوا لهُ رأينا بعد التبصُّر وامعان النظر ان ليس عندنا من هو اقدر منك على قيادة هؤلاء الجنود والاهتمام بمصالح هذه المستعمرة في السلم والحرب ولذلك فباسم الملك نقيمك قائدًا عامًّا لهذه المستعمرة وقاضيًا لها . وسمحوا لهُ بخُمس ما يكسبونهُ من الذهب والفضة غنيمةً كان او تجارةً . فاعطي اعظم سلطة مدنيَّة وحربيَّة

وجرت هذه الامور على غاية السرعة حتى دُهل انصار الوالي فلم يجدوا فرصةً للاعتراض

والمقاومة ولكن لما جُعل كورتس قائداً عاماً من قبل الملك وزالت كل سلطة للوالي ثار انصار الوالي وقالوا ان في الامر دسيسة واكثروا من الصياح والاعتراض وانشقّ الجنود بعضهم على بعض وكادت الفتنة تستفحل فبادر كورتس اليهم وقبض على زعمائهم وكبّلهم بالحديد وبعث بهم الى السفن وارسل فرقة من الجند لتطوف في البلاد المجاورة وتأتي منها بما تجدهُ من الطعام واستمال الباقين بالعطايا والمواعيد . وعاد الجنود الذين ارسلهم ليمتاروا ومعهم كثير من الاثمار والبقول والطيور فلما امتلأت البطون سكنت ثورة الغضب وزال التذمّر وعانق الجنود بعضهم بعضاً مسرورين مبتهلين حتى الزعماء الذين كبّلهم بالحديد طابت نفوسهم لما امتلأت بطونهم فتابوا الى السكينة وطلبوا ان يصالحوا كورتس فصالحهم وصالحهم وانقضت الفتنة على سلام وصاروا كلهم من اعز انصاره

ولا يسع المرء الاّ الاعجاب بما ابداهُ هذا الرجل حتى الآن من السياسة والدهاء وحسن النظر في العواقب فانهُ نقل السلطة من والي كوبا خصمهِ العنيد الى ملك اسبانيا ولم يكن هو الناقل لها بل رجال جيشهِ حتى لا يُتّهم بعصيان رئيسهِ ودارى خصومهُ وغلبهم بالمعروف وضربهم بيد واستلقاهم بالاخرى حتى انضموا الى حزبهِ وصاروا من انصاره وحوّل غرض هذه الحملة من المتاجرة بالبضائع الى فتح البلدان واستعمارها

ولما زالت الفتنة وسادت السكينة سار برجالهِ وسفنهِ الى المكان الذي عزم على انشاء المدينة فيهِ وكانت البلاد التي مرّ فيها كثيرة الخصب سهولها فيحاء وآكامها مكتسية حللاً سندسيّة باشجار باسقة وانهار جارية تمرح الظباء في سهولها وتتناغى الاطيار على ادواحها. والتقوا في الطريق باثني عشر رجلاً ارسلهم امير مكسيكو الى اليهم ادلّة ليأتوا بهم الى عاصمتهِ فلما دنوا منها رأوا دلائل الخصب والرفاهة رأوا الحدائق الفناء والسهول الفيحاء مبسوطة على مدى النظر ثم رأوا جماهير السكان رجالاً ونساء خرجوا لاستقبالهم ومعهم الازهار والرياحين طاقات واكاليل فقدموها لكورتس ورجالهِ وكلّلوا رؤوسهم بها وكان فيهم كثيرات من النساء الشريفات يابهى الحلى وافخر الحلل يتهادين بين جواريهنّ وعليهنّ دلائل الرفاهة والنعيم وهنّ ورجالهنّ بالعقود والاقراط والخزم وكلها من الذهب الابريز

وسار كورتس ورجالهُ على هذا النمط الى ان وصلوا الى المدينة فوجدوا فيها المباني الفخيمة من الحجر والشيد وخرج الامير لاستقبالهم وهو طويل بدين الجسم فرحّب بهم واعطاهم هيكلاً مجاوراً لقصرهِ لينزلوا فيهِ وبعث اليهم بكل ما يحتاجون اليهِ من الخبز واللحم والفاكهة واهدى الى كورتس كثيراً من الحلى الذهبية والثياب القطنية. اما كورتس فلم يجانب الحذر ولو رأى

من الاهالي كل تودُّد وترحيب بل اقام الحرّاس حول جنودهِ ونصب مدافعهُ وسدَّدها على مدخل الهيكل حتى لا يفاجئهُ احد بمكروه وهذا كان شانهُ دائمًا حتى وقت السير من مكان الى آخر كان يسير كأنهُ ذاهب الى القتال

وقام في الصباح وسار بخمسين من رجالهِ الى قصر الامير وكان مبنيًّا على اكمة يوصل اليها بسلم كبيرة من الحجر وترك رجالهُ في دار القصر ودخل ومعهُ رجل واحد ومارينا تترجم لهُ واخبر الامير انهُ آتٍ من قبل ملك عظيم الشان لكي ينسخ العبادة الوثنية من تلك البلاد ويعلّم الناس عبادة الاله الحقيقي . فاجابهُ الامير ان المتهم تهبهم النور والمطر وهي اصلح لهم من غيرها وانهُ هو خاضع لملك عظيم الشان عاصمتهُ بعيدة عنهم في بحيرة بين الجبال واذا عصوهُ انتقم منهم واخذ فتياتهم وفتيانهم وقرَّبهم ضحايا لآلهتهِ . فقال لهُ كورتس ان مولاهُ ارسلهُ ليقتصَّ من هذا الملك الظالم ويرفع ظلمهُ عن رعيتهِ وانهُ اذا حالفهُ التوتونك رفع عنهم نير الازتك. فقال الامير ان في بلاد التوتونك ثلاثين مدينة يخرج منها نحو مئة الف مقاتل وبينها وبين بلاد الازتك جمهورية تلسكالا المستقلَّة وانهُ بلغهُ ما فعلهُ الاسبانيون في تبسكا ولكنهُ لا يزال خائفًا من الخروج على الملك منتزوما العظيم لان جنودهُ تنحدر من الجبال كالسيل الجارف فلا تبقي ولا تذر فتأخذهم كلهم اسارى وتقربهم ضحايا

فقال لهُ كورتس ان الاسبانيين لا يخشون بأس الازتك وملكهم وان كل واحد منهم بمقام جيش من اولئك البرابرة . ثم حاول ان يعرف منهُ ما في الامم الناقمة على ملك الازتك لكي يعرف عدوَّهُ من صديقهُ ومن يقتل ومن يستحي. وبمثل هذا الكلام حاول بث الثقة في نفس الامير وودَّعهُ واعدًا اياهُ بالعودة ثانيةً للنظر في هذه المهام

وثبت لكورتس حينئذٍ ان في بلاد المكسيك اممًا كثيرة خاضعة لملكها رغمًا عنها وانها لا تانف من شق عصا الطاعة والانضواء تحت لوائهِ اذا اعلن الحرب على ملك المكسيك . وكاشف رجالهُ بما كان يدور في نفسهِ فوافقوهُ على رأيهِ وخُيل لهم ان اعلام اسبانيا صارت تخفق فوق ابراج تلك البلاد

وودَّع كورتس امير سمبوالا في اليوم التالي وسار الى المكان الذي وجدت فيهِ سفنهُ مرفأً امينًا لكي يبني فيهِ مدينة وبعث معهُ الامير اربع مئة حمَّال وهم ينوبون عن دواب الحمل في بلاد المكسيك فحملوا امتعتهُ وامتعة رجالهِ ومرُّوا في بلاد كثيرة الخصب الى ان بلغوا مدينة حصينة مبنيَّة على شاهق وكان امير سمبوالا قد تبعهم في محفَّة يحملها رجالهُ فقابلهم رجال هذه المدينة بالترحاب وحققوا لكورتس ما سمعهُ من امير سمبوالا وبينما هم يتذاكرون اضطرب القوم

وماجوا ثم دخل الساحة حيث كانوا مجتمعين خمسة رجال بثياب فاخرة وشعور لامعة يتبعهم كثير من الخدم والحشم بعضهم يحمل الاهواط وبعضهم المراوح يروّحون بها لاسيادهم . دخلوا الساحة ومرّوا فيها وهم ينظرون الى الاسبانيين شزرًا ولما رآهم شيوخ التوتونك نهضوا لاستقبالهم وساروا وراءهم كأنهم من خدمهم

فبهت كورتس من ذلك وسأل مارينا عن امر هؤلاء الرجال فقالت لهُ هؤلاء من اشراف الازتك اتوا ليجمعوا الجزية لمنتزوما . ثم عاد الشيوخ كاسفي البال وقالوا لكورتس ان هؤلاء الرجال اغاظوا منا لاننا رحّبنا بالاسبانيين من غير ان نستأذن الملك في ذلك وطلبوا منا فداء عشرين فتًى وعشرين فتاةً ليقدموهم ذبائح لآلهتهم . فاظهر كورتس مزيد الغيظ وقال للشيوخ لا تعطوهم شيئًا بل اقبضوا عليهم وكبّلوهم بالاغلال وانا المسؤول عن كل ما تفعلون . فتردّد الشيوخ خوفًا لكنهُ ما زال يحمسهم حتى قبضوا على هؤلاء الرجال وقيّدوهم ولما خيّم الليل بعث وفك قيود اثنين منهم واتى بهما اليهِ سرًّا وقال لهما انهُ آسف على ما فعل شيوخ التوتونك وانهُ يسهّل لهما سبل النجاة ويسعى من الغد في تخليص رفاقهما . وطلب منهما ان يخبرا الملك بذلك ويقولا لهُ ان الاسبانيين من اخلص الناس لهُ ولو عاملهم معاملة لا تليق بما هو مشهور عن كرمهِ لانهُ تركهم يموتون جوعًا في بلاد قاحلة . ثم بعث بهما الى المرفإ وامر ان تأخذهما سفينة من سفنهِ الى مكان آخر وينزلا فيهِ لكي لا يدري التوتونك بهما . ورأى شيوخ التوتونك في الصباح ان اثنين من رجال الازتك فرّا فاغتاظوا غيظًا شديدًا وعزما على قتل الثلاثة الباقين وتقديمهم ضحية فقال كورتس اني لا اسمح بقتل احد ضحيةً وانا اضعهم في سفني حيث لا يستطيعون الهرب . فانزلهم الى السفن وارسلهم الى مكان آخر واطلق سبيلهم بعد ان اقنعهم ان ما جرى لهم كان على غير رضاهُ . ولا ندري اين وضع شهامتهُ حينما فعل ذلك

وانتشر الرسل في كل بلاد التوتونك يخبرون الاهالي بما جرى لرجال منتزوما ويطلبون منهم ان لا يدفعوا جزية بعد الآن وكان خدَم رجال منتزوما قد هربوا وانتشروا في طول البلاد وعرضها يخبرون بما جرى لاسيادهم فهبَّ رجال التوتونك حاسبين انهم سيستردون استقلالهم القديم واجتمع رؤساؤهم معًا فاشار العقلاء منهم بان يرسلوا وفدًا الى منتزوما يستعطفونهُ ويعتذرون اليهِ عمَّا جرى لرجالهِ لكن الجمهور كان مخالفًا لرأيهم وواثقًا ان الاسبانيين يأخذون بيدهم ليطرحوا عنهم نير الازتك . وبعد جدال طويل قرَّ رأيهم على قبول حماية الاسبانيين والمجاهرة بالاستقلال فحالفوا كورتس تحالف هجوم ودفاع

وقام كورتس بعد ذلك الى المرفإ وشرع في بناء المدينة وساعدهُ الاهالي فجلبوا لهُ الحجارة

والجير (الكلس) والخشب والطوب ولم تمضِ ايام كثيرة حتى تم بناؤها وقد سُرَّ الاهالي حاسبين ان كوتزلكوتل رسول المكسيك عاد اليهم حسب وعده لينشر السلام في بلادهم ويغدق عليهم الخيرات. وهم لا يدرون انهم كانوا كالباحث عن حتفهِ بظلفهِ . ساعدهم الاسبانيون على كسر شوكة ملوك الازتك لكنهم خربوا بلادهم وقرضوهم عن وجه البسيطة كما سيجيء

ولم يكد كورتس يتم بناء المدينة حتى جاءهُ رُسُل من قبل منتزوما ملك المكسيك وذلك انهُ لما قبض شيوخ التوتونك على رجالهِ كما تقدَّم اسرع بعض خدمهم الى العاصمة وقصُّوا على الملك ماجرى لاسيادهم فاستشاط غيظاً وامر حالاً باخذ الاهبة للاقتصاص من التوتونك ومن الاسبانيين ولم يكن الاَّ قليل حتى عاد رجالهُ واخبروهُ ان الاسبانيين هم الذين نجوهم من ايدي التوتونك فزال ما خامر نفسهُ من الغيظ وعادت اوهامهُ اليهِ حاسباً ان الاسبانيين من نسل رسولهم كوتزلكوتل فبعث بهؤلاء الرسل الى كورتس وفيهم فتيان من اولاد اخوتهِ واربعة من اعظم رجال بلاطهِ وبعث معهم هدية فاخرة من الذهب والحلل المنسوجة بالريش ولما مثل الرسل امام كورتس ابلغوهُ تحية الملك وشكرهُ لهُ على انقاذ رجالهِ واكرامهم ثم قالوا ان جلالتهُ عاتب عليك جدًّا لانك رأيت نار العصيان تنتشر في البلاد ولم تبذل جهدك في اخمادها. ولكن اكرامًا لك سيصبر على العصاة ولا ينتقم منهم ما دامت في البلاد

فرحَّب كورتس بالرسل وبالغ في اظهار قوتهِ امامهم لكي يلقي الرعب في نفوسهم ثم صرفهم بقليل من الهدايا وبعث معهم رسالة الى الملك يقول فيها انهُ عازم على زيارتهِ في بلاطهِ لجلاء ما خامر نفسهُ من الظنون

ولما علم التوتونك بما قالهُ الرسل لكورتس زادت هيبتهُ في نفوسهم لانهم قالوا ان سلطتهُ تفوق التصوُّر حتى يخافها منتزوما العظيم على هذا البعد الشاسع

وبعد قليل طلب امير سمبوالا من كورتس ان يعينهُ على محاربة احدى المدن المجاورة فاسرع الى نصرتهِ واصلح بين المدينتين وعاد الى سمبوالا ودخلها ظافرًا فقدَّم لهُ اميرها ثمانياً من بنات عظمائها ليكنَّ زوجات لقوادهِ وكان معهنَّ كثيرات من الجواري لخدمتهنَّ فسرَّ كورتس بذلك وطلب ان يتنصَّرن اولاً ثم طلب من الامير ان يطرح اصنامهُ ويعتنق الديانة المسيحيَّة فقال لهُ ان المتنا كافية لنا ولا نريد ان نبدلها بغيرها . وكان رجال كورتس قد رأوا اولئك الناس يضحون الضحايا البشرية ويأكلون لحمها فبلغ منهم الاشمئزاز كل مبلغ وقالوا لا بدَّ لنا من صرفهم عن هذه العبادة القبيحة فلم ينتظروا امرهُ بل هجموا على الهيكل الاكبر وصعدوا على سلمهِ لكي يطرحوا الاصنام منهُ فثارت النخوة في رأس الامير ورجالهِ فهبُّوا الى سلاحهم وانبثَّ

الكهنة بين الشعب يحمسونهم للدفاع عن دينهم وآلهتهم . فامر كورتس رجالهُ ان يقبضوا على الامير والكهنة واعيان المدينة وقال لهم ان رمى أحد من رجالكم سهماً واحداً على رجالي ضربت اعناقكم . واتت مارينا الى الامير تحثهُ على طاعة كورتس وقالت لهُ ان انتم اغضبتموهُ فقد خسرتم حمايتهُ بعد ان اغظتم ملك الازتك ووقعتم بين نارين . فغطّى الامير وجههُ بيديهِ وقال اذاً الهتنا تنتقم لنفسها مما يفعلهُ بها هؤلاء الاسبانيون . ولما رأى كورتس منهُ ذلك امر رجالهُ ان يطرحوا الاصنام من الهيكل الاكبر فصعدوا اليهِ واخرجوها منهُ وكانت من الخشب ودحرجوها على سلمهِ والاهالي وقوف يتأوّهون ويتحسرون ثم حرقها الاسبانيون امامهم فدهشوا لما رأوها تحرق وهي لا تدافع عن نفسها وانحطَّ شأنها في عيونهم فثابوا الى السكينة

ثم ان الاسبانيين طهّروا الهيكل ووضعوا فيهِ مذبحاً واقاموا الخدمة الدينية باجتفال عظيم وشاركهم بعض الكهنة في هذا الاحتفال . وسرَّ كورتس بما فعل حاسباً انهُ نفّس الاهالي وقام بالغرض الاسمى الذي جاء لاجلهِ . ثم عاد الى المدينة التي بناها فوجد ان قد جاءتها سفينة صغيرة فيها اثنا عشر بحرياً وفرسان فضمَّ رجالها الى رجالهِ وعرف منهم انهُ جاء والي كوبا امر من اسبانيا لينشئ مستعمرةً في البلاد التي كُشفت حديثاً . فرأى ان لا بدَّ لهُ من ان يرسل الى اسبانيا يخبر الملك عن البلاد التي اكتشفها واتساعها وغناها ويسترضيهِ لكي يعطيهُ ولايتها والاَّ يتيت لوالي كوبا وذهب تعبهُ سدًى واضطرَّ ان يخضع لخصم عنيد . ورأى ان خُمس ما وصل الى يدهِ من الغنائم والهدايا لا يكفي لاسترضاء الملك واقناعهِ بغنى البلاد الوافر وعظم الخدمة التي خدمهُ بها فتذاكر مع القواد في هذا الشان وقرَّ قرارهم على ارسال كل ما وصل الى يدهم منها . والقواد اخبروا الجنود واقنعوهم ان الهدية تسترضي الملك فيعفو عما مضى ويبيح لهم ان يتملكوا البلاد باسمهِ ويغنموا منها ما شاؤوا فاقتفوا كلهم خطوات رئيسهم واعطوا كل ما وصل الى ايديهم من الغنائم والهدايا فبعث بها كورتس الى ملك اسبانيا وبعث معها كتاباً شرح فيهِ ما عملهُ حتى الآن وما ينتظر عملهُ ومناصبة والي كوبا لهُ وطلب من الملك ان يؤيدهُ ويقرَّهُ على ولاية البلاد التي اكتشفها لكي تزيد ثقة رجالهِ بهِ ويقوى على فتح البلاد كلها وامتلاكها باسم الملك . وشفع حكّام المدينة كتاب كورتس بكتاب آخر كتبوهُ وايّدوا فيهِ كل ما ذكرهُ واطنبوا في مدح شجاعتهِ وتفانيهِ في خدمة مولاهُ وطلبوا من حكومة اسبانيا ان تؤيد ما فعلهُ ولا تصغي الى شيء مما يقولهُ والي كوبا . وكذلك كتب اهالي المدينة وعامّة الجند كتاباً ايدوا فيهِ طلب كورتس معربين عن خضوعهم التام للملك

وارسل كورتس الهدية في احسن سفنهِ وائتمن عليها اثنين من خواصهِ وبعث معهما

اربعة من العبيد انقذهم من القتل وكان في السفينة ١٥ بحارًا فسارت تشق عباب المحيط حتى وصلت الى كوبا فرست فيها على ضدّ ما امرها كورتس وبلغ خبرها الوالي فاخذ يهيل الشتائم واللعنات على كاتبهِ وامين خزينتهِ اللذين اقنعاهُ بارسال كورتس في هذه الحملة حتى اذا افرغ بعض ما في قلبهِ من الحقد امر ان تذهب سفينتان للقبض على سفينة كورتس لكن السفينة اقلعت قبل وصولهما اليها وابعدت عنهما فلم تستطيعا لحاقها فزاد غيظ الوالي وكتب الى اسبانيا يستنجد انصارهُ لمقاومة كورتس وجهّز عمارة اخرى ليرسلها الى بلاد المكسيك حتى توقع بهِ

اما سفينة كورتس فوصلت الى اسبانيا وكان للاخبار التي اذاعتها تاثير في النفوس لا يقل عن التأثير الذي حدث لما عاد كولمبس من كشف اميركا لكن الملك كان على اهبة السفر من اسبانيا الى المانيا حيث انتخب امبراطورًا فلم يسعهُ الوقت للنظر في امر كورتس

وكان في مدينة ڤرا كرُس اناس لم ترضهم افعال كورتس فتآمروا على اخذ سفينة من السفن والهرب بها والعودة الى كوبا واعدوا كل ما يلزم لهم سرًّا ولما حانت الليلة الموعودة للهرب افشى واحد منهم سرَّهم لكورتس فقبض عليهم وحاكمهم وحكم على اثنين منهم بالقتل وعلى واحد بقطع رجليهِ ورأى من ذلك الحين انهُ ما دامت السفن في المرفإ لم يأمن خروج بعض رجالهِ عليهِ والهرب بها فادّعى ان السوس نخر بعضها ولم يعد يصلح لشيء فامر باغراقهِ ثم احتال على اغراق البعض الآخر ولم يبقِ منها الاَّ سفينة واحدة حتى لا يبقى لرجالهِ امل بالعودة من تلك البلاد وكان قد خرج بالجنود الى مدينة ممبوالا فلما بلغهم ما حلَّ بالسفن طارت نفوسهم وعلت جلبتهم وكادوا يجاهرون بالعصيان ويفتكون بهِ اما هو فلم يرعهُ امرهم بل جمعهم وخاطبهم قائلاً انا اغرقنا السفن لان السوس في هذه البلاد قد نخرها فلم تعد تصلح لشيء وان حق لاحد ان يشكو من ذلك فانا احق منكم بالشكوى لان السفن لي والخسارة عليَّ اما انتم فقد ربحتم من اغراقها لان بحارتها ينضمون اليكم ويساعدونكم ولم تخسروا شيئًا لانها لم تكن صالحة لنقلكم من هذه البلاد فقوّوا نظركم الآن الى الفوز الذي وُعدنا بهِ اما من جهتي فانا عازم ان ابقى هنا مادام معي واحد منكم وان كان بينكم من هو جبان يخشى اقتحام المخاطر فقد بقيت من السفن سفينة وهي اصلح السفن كلها للسفر فليعُد بها الى كوبا ويخبر اهلها انهُ ترك قائدهُ واخوانهُ لكي يعودوا وحدهم من بلاد الازتك بالاسلاب والغنائم

فحرَّك هذا الكلام نخوتهم ورغبتهم في بلاد المكسيك وكأنهُ رسم امام عيونهم خزائن مشحونة بالذهب تنتظر وصولهم اليها فعجلوا ممَّا فرط منهم وصرخوا كلهم المكسيك المكسيك